

1. مقدّمة:

تعتبر الرواية وسيلة أنسب للتعبير عن حياتنا، وتجسيماً محسوساً للواقع على نحو كليّ، والموضوعات المطروقة هي ما يحدّد كينونة هذا الجنس الأدبيّ، خاصّة إذا كان واقعنا متأزماً ومعقّداً وغامضاً، حتماً سيدفع الرواية إلى رؤية وتجربة جديدة تنقل ما يعصف براهن المجتمع وسيروته التاريخيّة والثقافيّة، حيث اهتمّت الرواية الجزائريّة بصفة خاصّة بالأزمة التي مرّت بها البلاد خلال عشريّة كاملة، حتى صارت لصيقة بهذه الأزمة فسمّيت بها.

لقد هيمن على الرواية الجزائريّة في هذه الفترة البعد الإيديولوجيّ، وتميّز شكلها الجماليّ والفنيّ عن عهدها السّابق، فرصدت أزمة الجزائريين ومسبّباتها، خاصّة ذلك التناحر العنيف بين السّلطة والجماعة المتطرّفة، ومدى أحقيّة كلّ طرف في قيادة هذه المرحلة.

من تلك النّصوص الرّوائية اخترنا رواية "خرفان المولى" للكاتب الجزائريّ ياسمينه خضرا، إذ استوقفنا قضايا جوهريّة مسّت أركان الدّولة من كلّ جوانبها في فترة التسعينيات، وما لهذه القضايا من أثر في سيرورتها السّردية، وأنّ هذه الرواية هي إحدى الروايات التي عكست الواقع المتأزّم والمأساويّ بكلّ أبعاده في تلك الفترة.

نبحث في رواية "خرفان المولى" عن كنه الصّراع الهويّاتيّ ودوافع إثبات كينونة الذات الجزائريّة، ونسائل الدّين والسّلطة والتّاريخ، نظرا للاهتزازات التي مسّت الثوابت والمرجعيّات. هويّات تتصارع بعنف مع أخرى مستترة خلف شخصيات جسّدها الكاتب ليعبّر عن موقفه ورؤيته للعالم المتغيّر.

من خلال ما أسلفنا الذّكر، نحاول أن نكشف عن صراع الهوية المتطرّفة مع الآخر وعلاقتها به، وما أسباب وأشكال العنف الدّائرين منظومة أفكار وقيم وأنساق متباينة شكّلت هويّة مجتمعيّة خاصّة؟

2. مفهوم الهوية:

1.2 الهوية لغة:

لم نعثر في المعاجم العربيّة على مصطلح الهوية بمعناه الحديث، ففي لسان العرب: "الهويّة مأخوذة من الفعل الثلاثيّ هَوَى هَوِيًّا وَهَوِيًّا وَهَوِيًّا، وَهَوَى سَقَطَ مِنْ فَوْقَ إِلَى أَسْفَلَ، وَهَوَاهُ هُو. يُقَالُ: أَهْوَيْتُهُ إِذَا أَلْقَيْتُهُ مِنْ فَوْقَ، هَوِيَّةٌ تَصْغِيرُ هَوَّةٍ وَقِيلَ: الْهَوِيَّةُ بئْرٌ بَعِيدَةُ الْمَهْوَاةِ"¹، فالهويّة هنا بمعنى السّقوط من الأعلى إلى الأسفل.

وعند الجرجاني: "الهوية هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق، والهوية السارية في جميع الموجودات ما إذا أخذت حقيقة الوجود"². فالهوية حسب الجرجاني من الموجودات في الأرض للتعبير عن الحقيقة المطلقة الراسخة في الذات الإنسانية.

والهوية من الكلمات المشتقة من الضمير المنفصل (هو) الذي يدلّ على ذوات الأشياء أو الأشخاص الآخرين"³.

ويعرّف قاموس "المنجد"، معنى الهوية بـ حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية"⁴.

كما أنّ الهوية اسم غير عربيّ، مترجمة عن "identité"، اشتقّها المترجمون للدلالة على كون الشيء هو نفسه، وتعرف في الفرنسية بـ "identité" وفي الإنجليزية "identity" وفي اللاتينية "identitas"⁵.

وبهذا نجد أنّ المفهوم اللغويّ للهوية يتخذ معانٍ عدّة، فهي تشير إلى وحدة الذات، أي الخصوصية والتفرد والامتياز عن الآخرين، كما تشير إلى جوهر الشيء ومنبته وأصله.

2.2 الهوية اصطلاحاً:

الهوية اصطلاحاً مفهوم إشكاليّ يصعب تحديد معالمه، إحدى هذه المفاهيم تقول إنّ الهوية هي "ما يصمد من الإنسان عبر الزمن إذ تلازمه مكوّنّة شخصيّة و محدّدة معالمه بشكل ثابت، ما يمنح إبداعه طابعاً خاصاً، فلا يكون مسخاً للآخرين"⁶. أي هي مجموع الصفات والميزات التي تلازم الإنسان وتجعله يختلف عن الآخر. كما "يمكن للمرء أن ينظر للهوية على أنّها مجموع سماته المميزة والدائمة التي تميّزه بوصفه مخلوقاً لا تخطئه العين، والهوية هي ما يمكن للإنسان أن يصف به الآخرين..."⁷. أي أنّ الهوية هي ما يميز الذات البشرية عن غيرها.

فالهوية هي المفتاح الذي يجعل الفرد متميّزاً عن غيره من حيث اللغة والدين والتاريخ...

3. مفهوم العنف:

1-3 لغة:

جاء في لسان العرب: "العُنْفُ: الخُرْقُ بِالْأَمْرِ وَقِلَّةُ الرِّفْقِ بِهِ، وَهُوَ ضِدُّ الرِّفْقِ. عُنْفَ بِهِ وَعَلَيْهِ يَعْنُفُ عُنْفًا وَعَنَافَةً وَأَعْنَفَهُ وَعَنْفَهُ تَعْنِيفًا، وَهُوَ عَنِيفٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ رَفِيقًا فِي أَمْرِهِ. وَأَعْتَنَفَ الْأَمْرُ: أَخَذَهُ بِعُنْفٍ؛ هُوَ بِالضَّمِّ الشَّدَّةُ وَالْمَشَقَّةُ"⁸. فالعنف: ضد الرفق ويراد به الشدّة.

2.3- اصطلاحا:

يشير مفهوم العنف اصطلاحا إلى استخدام القسوة والقوة والمفرطة ضد طرف آخر قصد إجباره أو السيطرة عليه، أو هو "كلّ أذى (مادي، معنوي) يلحق بالأشخاص أو الهيئات أو الممتلكات".⁹ ويرى "ميشال فوكو" أنّ العنف مصدره لا يقتصر على السلطة فحسب، بل "الفرد أو المواطن يمارس القوة هو أيضا على غيره من المواطنين".¹⁰

- وتعرّف "باربارا ويتمر" العنف بأنّه تعبير ضروريّ عن الغضب الذي يفسّر بأنّه عدوان، أو أنّه دافع فطريّ للسيطرة على ما هو فطريّ أو تدميره بوصفه إرادة، قوة، شجاعة.

- ويرى "حسن إبراهيم أحمد" أنّ العنف مكتسب عند الإنسان إذ ينتج عن العلاقات بين الأفراد والمجتمعات، "إنّ العنف علاقات التمسك والسيطرة، وعنف العلاقات التي توجّهها وتغذيها الثقافة والعقائد".¹¹

من خلال التعريفات السابقة، يتضح لنا أنّها تشترك في فكرة واحدة، وهي أنّ العنف إلحاق الأذى بالذات أو الغير باستعمال القوة ووسائل أخرى وما ينجم عن ذلك من آثار سلبية.

4. الهوية بين التعدّد والتّجلي:

1.4 من أجل هويّة مظهريّة خلافيّة:

رسمت رواية الأزمة الجزائرية هويّة شكلية نمطية للمتطرف وفق أوصاف محددة تركز على مقومات الشخصية الخلافية، فلباس المتطرف يحيل على هويّة خاصة به تميّزه عن الآخر، من تلك الأوصاف ما قدّمه "جلول" عن "قادة هلال" لما عاد من أفغانستان في رواية "خرفان المولى" لياسمينه خضرا، حيث قدّم "يعتمر شاشا عليه قبعة كاكية اللون وسترة تنزل إلى غاية الركبتين وتحتها عباءة شرقية... حينذاك فقط أدرك جلول هويّة القادم الغريب".¹²

في هذا المقطع وصف ملامح القادم "قادة هلال"، التي عبّرت عن نمطيّة: شاش، قبعة، سترة، عباءة... ولم يكتف السارد بالوصف الظاهريّ بل تعدّاه إلى إظهار الجانب الخفيّ لـ "قادة هلال" وما يحمله من إيديولوجيا اكتسبها من أفغانستان ليعود محمّلا بهويّة مغايرة.

ما لمسناه من ملامح هذا المتطرف، تكاد تختزل الدّين في المظهر الخارجيّ من لباس ولحية وكحل، باتت علامات دالة هويّة مختلفة عن غيرها، "فالشّعور بالاختلاف يُعدّ مطلباً أساساً من أجل وعي الهوية ونموها".¹³ وحسب المتطرّف "أنّ الدّين لا تنحصر تجليّاته في الاعتقاد بوحداية الله فقط، بل يشمل الطّقوس والمعاملات والثقافة المتّصلة بالدّين وترسّباتها في اللاوعي وأكثر ما تبرز العلاقة بالدّين في مواقف الشّخص واختياراتهم وسلوكياتهم".¹⁴

إنّ الشّعور بالهوية الخاصة مركّب أصلا بالشّعور بالتباين والتفرد، فهو آخر بالنسبة لغيره.. يستحيل للتقارب والمطابقة أن تكون وإذا حدث ذلك فإنه يُعدّ فقداناً للهوية لصالح هوية أخرى¹⁵.

وعليه فالرواية "خرفان المولى" عبر صوت "جلال" لم تستثنِ السمات الفيزيولوجية التي صورتها بطريقة مخالفة للشخصيات الأخرى غير المتطرفة حتى تؤكد من خلال تضافر عناصر الوصف (من وجه ولباس...) الهوية المظهرية الجامعة بين الظاهري والخفي، وكشف خبايا الفكر المتطرف ونظرته للآخر. يقول السارد في الرواية متهمًا من حركة التغيير في "غاشيمات": "داخل المسجد ظهرت رؤوس جديدة، تعزّز بالشّعيرات التي بدأت تغطي الخدود والتي تُعدّ بلحى كثة"¹⁶. وفي موضع آخر وصف لجماعة المتطرفين "خمسة رجال مسلحون يقفون وسط الغرفة، اللحية أكثر وحشية من جزة كبش بريّ، الملابس متسخة والنظرة قاتلة"¹⁷. هذه السمات كلّها تتعارض والمعتقد الديني الذي يتوارى وراء مظهر هؤلاء المتطرفين.

2.4 هوية اسمية:

إنّ طبيعة الشخصية ودلالاتها تدفع الروائي إلى تخطيط مسبق لاختيار أسماء شخصيات تناسب الأحداث وسيرورة السرد، فالاسم يبرز هوية الشخصية ويؤكد حضورها وتميزها، خاصة إذا كانت الشخصية مستغلة في سياق إيديولوجي يتميز بالصراع الفكري أو الطائفي، ذلك أن "الأسماء الأعلام بالضبط الوظيفة نفسها داخل الحياة الاجتماعية، إنّها التعبير اللفظي عن الهوية المتميزة لكلّ شخص فردي"¹⁸. وقد يختلف الروائيون في وضع أسماء الشخصيات بحسب الأدوار الموكلة إليها داخل النصّ، وتصبح علامة هوية فردية تميزه عن الآخر.

استنادا إلى هذه الفكرة، اتخذت أسماء بعض شخصيات الرواية دلالات متعددة: إيديولوجية، عقائدية، تاريخية، ثقافية،... لتلائم الوظيفة أو الدور الذي تقوم به.

من الأسماء التي اختارها المؤلف بحيث تشير إلى دلالة معينة يوحي بها الاسم بعد أن تتضح صورت في ذهن المتلقي نذكر:

- عباس عيش: اسم عباس ليس غريبا على الجزائريين فقد اقترن بأذهاننا باسم عباس مدني قائد الجبهة الإسلامية للإنقاذ في التسعينيات، الذي سجن آنذاك، وهذه الشخصية الفنية تتقاطع مع الشخصية الواقعية في الاسم والانتماء فعباس عيش تم سجنه كما سجن عباس مدني يقول الراوي: "ثم سجن الشيوخ وقادة الحركة، وهجرت المناضلين إلى محتشدات في الصحراء وتركهم عرضة لقسوة المناخ وشراسة الجلادين"¹⁹. فعباس مدني شخصية واقعية عبرت عنها شخصية "عباس عيش" الفنية.

- قادة هلال: اسم هلال يستحضر في الذهن قبيلة بني هلال التاريخية والتي تعزز والدته بحمل هذا الاسم بقولها: "أنا هلالية حرّة. في زماني كان الناس ينادونني بـ"لالة"²⁰.

- الشّرطي علال سيدهم: اسمه مرتبط باسم التفضيل "سيدهم"، لحظّه وعمله ومكانته في القرية، فهو أول أصدقائه من حصل على وظيفة، ويملك سيارة، وقد أحبّ وتزوج فتاة أحلامه (سارة) ابنة رئيس البلدية. لكنه تحول إلى طريدة من قبل الجماعة المتطرّفة باعتباره عون الدولة الكافرة حسب معتقدتهم وهذا ما وضحه المقطع السّردي على لسان تاج عصمان: "باشر إخواننا الجهاد في العاصمة وضواحيها. يوميا يسقط رجال الشّرطة والكفار والخونة تحت رصاصاتنا"²¹.

- الشّيخ رضوان: شخصيّة لا تعبر عن شخصيّة واقعيّة واحدة بل عن شخصيات عديدة منها ما هو مستمد من التراث الإسلامي ومنها ما قصده المؤلف وعبر عنه بشكل فنيّ، يقول الرّاي: "كثرة تنقلاته وإقامته الطويلة في السّجون جعلت منه أسطورة أقام بمصر وباكستان وماليزيا" ومن الملامح الفنيّة التي اكتسبت شخصيّة الشّيخ رضوان قول الرّاي: "أينما حلّ تكتسي الأرض التي رفستها قدماه بعشب مبارك" وكأنّه يشبه الرّجل الصّالح سيّدنا "الخضر".

- الحاج مورييس: اسم مورييس يستحضر تاريخيا شخصيّة مورييس المرتبط بالاستعمار والخطّ المكهرب على الحدود شرقا ولكن مورييس في الرّواية بقي أجنبيّا: "مورييس أجنبي؟"²². مكث في الجزائر بعد الاستعمار غير أنّ اسمه مدوّن بالقائمة السّوداء، لذا قتلتها الجماعة المسلّحة فيما بعد.

- داكيتيلو: اسم مأخوذ من الملفوظ الأجنبي (Dactylo) الدالة على الآلة الراقنة، ولم يفصح عن الاسم الحقيقي داكيتيلو بل سماه الكاتب العموميّ بالرغم من احتكاكه بالبيئة العربيّة إلا أنّه بقي محافظا على ثقافته الأوروبيّة، ويظهر ذلك عن ذهابه لعباس غاضبا: "المعبد العتيق إنّهم يخربونه"²³.

وشخصيات أخرى (زان القزم، جعفر، بوجمعة، إسماعيل، بوحفص، مراد، طاهر،...) تدلّ على قصديّة الكاتب في وضع أسماء شخصياته واختيار نماذج روائية مناسبة لأداء دورها في الواقع المتخيّل الذي يحاكي العالم الواقعيّ لتلك الفترة العصيبة التي مرّت بها الجزائر.

3.4 هويّة طاردة و أقطاب متنافرة:

إنّ الصّراع بين الهويّة المتطرّفة والآخر ينتج أقطابا متنافرة ويشحن علاقة التّنافر بين الطّرفين (الذّات المتطرّفة والآخر المختلف)، إذ تأبى الذّات المتطرّفة الاعتراف به إلا إذا انسجم مع إيديولوجيّته ومشروعه، "فكلّ ما هو خارج الذّات الفرديّة هو آخر بالنّسبة لتلك الذّات وكلّ ما هو خارج ذات الجماعة الفكرية والعقائدية هو آخر بالنّسبة لتلك الجماعة، لذلك وجب هدره واستئصاله"²⁴.

إذا اعتبرنا الهويّة المتطرّفة قطبا والآخر قطبا فإنّ ميزة التّنافر ورفض الآخر تكون في أسعى تجلياتها، حيث تمارس الهويّة المتطرّفة طردها للآخر، فتكفره وتنعته بالردّة، وقد تطبق عليه الحد

كفعل استباقي قبل يوم الحساب، وهذا ما وقع مع حاج مورييس. "ارتعى أربعة رجال على حاج مورييس، أسقطوه على كرسيه. خرج بوجمعة حتى لا يشهد وقوع المجزرة، صرخ زان مزهوا: انزعوا عباةته... انحروا رقبته... أريد أن أراه يتخبّط مثل خنزير سمين..."²⁵.

الهوية الطاردة في رواية الأزمة، لم تكن نافرة من السلطة بل حتى من حلفائها وأتباعها من أجهزة الدولة والمفكرين والمثقفين، وحتى رجال الدين، الذين لم ينساقوا وراء التيار السلفي، في هذا المقطع سرد لضحايا التيار المتطرف: "لم تجد غاشيمات الوقت لتجفيف دموعها (ذبح الإمام). في الليلة نفسها تم خطف عون البريد والمواصلات (...) تعرض مقر الشرطة بحاسي مسخوط إلى التفجير. ذبح ابن حبيب الحلاق في مولاي نعيم، إنه مجنّد في الخدمة العسكرية..."²⁶.

خطاب الشخصية "تاج عصمان" يعبر عن صراع الأنساق الإيديولوجية بين الديني والسياسي، الذي وصف بالكفر والإلحاد، حيث أسست الشرعية الدينية في الزمن الراهن شرعية بديلة، بوصفها سلطة مضادة للسلطة السياسية، وترى الشخصية المتطرفة بحسب اعتقادها أن ما تقوم به هو بحث عن الشرعية بواسطة الجهاد، حيث "يتّصف له الحاكم بأنه طاغية ومستبد وتفسح له أبواب الجنة الأصولية توهمه بأن ما يقوم به من أعمال تدمير الواقع تمهيدا لتغييره، هو من الجهاد وأنه هو المجاهد حصرا"²⁷.

5. العنف بين التعدّد والتجلي:

سايرت رواية الأزمة الجزائرية الوضع الذي مرت به البلاد كغيرها من الأجناس الأدبية، ورواية "خرفان المولى" ليست استثناء، إذ عثرنا في ثناياها على شتى أنواع العنف الذي ميز العشرية السوداء، وكان الروائي شاهدا على ذلك فنقل لنا ذلك الواقع المأزوم وقربنا من مسرح الأحداث وفسّر الأزمة ودوافع اندلاع العنف في الجزائر²⁸، ولعل أهم أسبابه تغلب شرعية القوة على شرعية الحق، فثارت الجماعات المتطرفة الرافضة للوضعية الاجتماعية التي سببها حسب نظرهم النظام السياسي الفاسد. فأحست بالاضطهاد، وفقدت الثقة بالسلطة. فحينها تحول الفرد من فرد هادئ متزن إلى فرد همجي، تعامله اليومي الوحيد هو العنف لإثبات ما فقده.

من أنواع العنف المتولد عن الأزمة والذي رصدته الرواية نذكر:

1.5- العنف الرمزي:

هو عنف خفي غير ظاهر؛ أو مقنّع. ويتمّ عبر وسائل رمزية كاللغة والإشارات والإيحاءات... أثناء التواصل مع الآخرين ويتوارى خلف الكثير من السلوكات اليومية المقبولة اجتماعياً وثقافياً وإيديولوجياً، ودينياً، وما له من تأثيرات وخيمة على الفرد

ويتجسّد العنف الرمزيّ في الرواية "خرفان المولى" من خلال التّبخيس الذي يهدف إلى التّقليل من قيمة الأفراد الآخرين. يقول السّارد: "بعد العودة إلى البيت، أمسك تاج أباه من الكتفين وقال:

- انتهى كلّ شيء. أسمعني؟

- ما هو السّيء الذي انتهى يا ولدي؟

- الإهانة... الإذلال... ابتداء من هذه اللحظة، سترفع رأسك وتمشي مستقيما وسط أهل القرية"²⁹. يحاول تاج أن يسترجع قيمة أبيه التي كان يتمتع بها سابقا، وقد مسّه اليوم التّحقير والازدراء.

كما هذا العنف من خلال استلاب حقوق الأفراد وما يتمتعون به من امتيازات اجتماعية ومهنية مشروعة، يضيف السّارد: "في اللحظة تحرك تحت ثقل الحمل انزلق الكيس من على كتفه وانشق على الأرض. انفجر الخبّاز غاضبا: أيها الأحمق أين كان رأسك؟"³⁰. يوحى الموقف بسوء معاملة العمال واستعبادهم دون مراعاة مشاعرهم، لأنّه لا يتطلب كلّ هذا العنف.

كما تجسّد من خلال استخدام الرموز والإشارات اللفظية والتّعبيرات الجسمية التي تدل على عنف المعتدي ورفضه للآخر. يضيف السّارد: "بوّالة وسخة تتصرّف كسلطانة لأنّ زوجها الفزّاعة رئيس بلدية. نسيت بسرعة تلك الأيام التي كانت تأتي فيها إلى مزرعتنا حافية، جائعة، يسيل منخاراها قذارة لتبحث عن الفتات في مزابلنا"³¹، والدة قادة تذكّر ابنها بحال تلك العائلة سابقا، وترى في الذهاب لخطبة ابنتها إذلالا وتحقيرا لمكانتها هي كأم والعائلة ككل.

2.5- العنف الاجتماعي:

هو كلّ أذى يربك النّظام الاجتماعي والعلاقات بين أعضائه، فهو يخص النّاحية الاجتماعيّة للإنسان، ويرتبط بحياته بشكل وثيق ويظهر من خلال الظلم، القهر، التّعسف، الاحتقار وسلب الحقوق. من مواقف العنف الاجتماعي في "خرفان المولى". يقول الشّيخ رضوان إمام مسجد غاشيمات:

"قلت: " يا شعب الجزائر، ماذا تفعل تحت الخراب؟ لم يجبني أحد... رأيت المحسوبيّة والأباطيل والتّعسف والابتذال زاحفة، ورأيت الحشود تتمايل مزهوة باتجاه كهوف الهلاك... فقد شعبي روحه ومعالمة"³². في هذا المقطع يتجسّد العنف الاجتماعي وما يلاقيه الشّعب من ظلم وقهر وتّعسف... وما له من تأثيرات على الفرد والجماعة قد تدفعه إلى مقابلة ذلك بعنف أقوى.

تقول زوجة عيسى عن الطبقة الحاكمة: "كانوا يتصوّرون أنفسهم أسيادا. يتصرفون في الأشقياء مثلما يحلو لهم. لا يحترمون الفقراء. لا يعرفون إلا السرقة والخيانة واحتقار الغير. لقد أذاقني الأمرين، هؤلاء الكلاب"³³.

3.5- العنف الجسدي:

هو استخدام الجسد أو البدن في العنف وإلحاق الضرر والخطر بالآخر، ويعتبر أقصى درجات العنف، وقد يصل إلى القتل أو الاغتيال. تجسّد هذا النوع من العنف بأشكال متعددة، منها الضرب والاغتيال، ذبحا أو حرقا أو رميا بالرصاص، أو بالتفجيرات وما ينجم عنها، كلّ ذلك كان موجّها إلى كلّ فرد أو جهة معارضة للفكر المتطرف. رواية "خرفان المولى" مثقلة بهذا العنف في أبشع صوره، وخير مثال مقتل عائلة رئيس البلدية، يخاطب الإرهابي "يوسف" رئيس البلدية: "أنظر إلى عائلتك ستكون شاهدا على قتلهم سندبحهم أمام عينيك، الواحد بعد الآخر. ثم نضاجع زوجتك، ثم نفقأ عينيها، نقلع أظفارها وجلد ظهرها، نقطع نهديها ثم نمزقها بمنشار حديدي. وحينما ننهي عملنا سأرّش جسدك بالبنزين وأشعل فيه النّار بابتهاج لا مثيل له"³⁴. ليس أبشع من هذا العنف، ثمانية جثث متفحمة لعائلة رئيس البلدية، رجل وامرأتان وخمسة أطفال منهم رضيعان وأطراف مبتورة...

في مشهد آخر لا يقل عنفا وبشاعة عن هذا المشهد، اختطاف إمام القرية: "يحيى هذا الكيس الجديد المتروك على الجسر رأس رجل مقطوعة. إنّها رأس إمام القرية، الحاج صالح"³⁵. تخلّصوا من إمام القرية ذبحا لأنّه لم يصدر فتوى تتماشى مع مخططاتهم، وهي الجهاد ضد السّلطة الظالمة والخارجين عن معتقداتهم.

ومشاهد أخرى في ثنايا الرواية تعبر عن عنف المتطرفين، من شجارات عنيفة بين العائلات، اغتيال موريس الأجنبي، زوجة علال الشرطي، العسكري وأبوه الحلاق، حرق امرأة وابنتها بسبب الزّنا... وداكتيلو المثقف...، حولوا قرية "غاشيمات" إلى قرية أشباح بدل إعمارها.

4.5- العنف السياسي:

هو دفع النّاس وإرغامهم على اتّخاذ موقف سياسيّ معيّن ومعارضة فئة سياسيّة واستخدام العنف ضدها. وما حدث في الجزائر مع زوال الحزب الواحد وتعدّد الأحزاب في ظلّ الحرّية السياسيّة، أشعل النّارين السّلطة الحاكمة والتيار المتطرّف الذي أراد السّيطرة على الحكم. وما شهدته السّاحة السياسيّة من اضطرابات من إلغاء للمسار الانتخابي وإعلان حالة الطّوارئ في التّاسع من ماي 1992... تفاعلت الرواية مع تلك التّجربة المريعة ورصدها.

من المقاطع المجسّدة للعنف السياسيّ في رواية "خرفان المولى"، يقول السّارد: "لُتْهَب الخبر مثل حزمة تبّن. كان زان القزم هو أوّل من تحرّك. تمكن من التّسلل عبر السّيقان وراح ينشره في الأزقة:

- الدّزاير في حرب. مئات القتلى. الشّعب ينتفض ضدّ السّلطة".³⁶ هنا تأزّم الموقف بين الشّعب والسّلطة لتكميم أفواه النّاس وكبح حرّياتهم بشتى الوسائل.

ويضيف السّارد: "إنّ جمهوره الجديد، المتشكّل من المراهقين والرّجال حديثي العهد بلحاهم الكتّة ورؤوسهم المحلقة وعيونهم المكحلة، لا يريدونه إماما لهم على المنبر يصفونه ببوق النّظام".³⁷ صار الجمهور الجديد لا يثق حتى في الإمام، وفوضى سياسيّة توحى بالانفجار.

5.5- العنف اللفظي:

يتمثل في قول الكلام البذيء، والسّب، والشتم، حيث يتمحور حول الإساءة بالألفاظ السيّئة بما فيها من تحقير للآخر واستلاب لقدرته وإرجاعه لدرجة الحيوان أو حتى الجماد. وجدنا هذا النّوع من العنف في الكثير من المواضع في الرواية، نورد بعضها:

"حينما منع ملتحيان جعفر من الدخول إلى المسجد، قال لجعفر:

- إنّ البهيمة المتوحّشة قد استيقظت.

ردّ جعفر يائسا: فليذهبوا إلى الشّيطان".³⁸ في هذا المقطع الحواريّ بين "داكتيلو" و"جعفر" الذي شبّه الخطيب "عباس" بالشّيطان بكلّ ما تحمله هذه اللفظة من معانٍ، أدناها الضّلّال والغواية.

وفي مقطع آخر من الرواية: "قرفص عيسى، مرتبكا ومرعوبا، وراح يجمع الدّقيق بيديه ويعيده إلى الكيس.

- هكذا أيّها الأبله... الآن سيكسر زبائني أسنانهم على الحصى.

- أنا الذي سأصلح وجهك يا حمار...".³⁹ ينقل هذا المقطع العنف اللفظي (الأبله، حمار) الذي لاقاه عيسى العامل المقهور من طرف الخباز المتسلّط، وهي صور تتكرّر مع كثير من العمال هنا وهناك.

كان العنف قضيّة جوهريّة في هذا العمل الروائيّ، حيث تجلّى بمختلف أشكاله، وما خلفه من آثار على مستوى المتخيّل فما بالك على الواقع.

6. خاتمة:

في الأخير نخلص إلى أنّ رواية "خرفان المولى" هي واحدة من الروايات التي صوّرت الأزمة الجزائريّة خلال التسعينيات بمختلف أبعادها النّفسية والاجتماعيّة والسياسيّة والأيدولوجيّة برؤية

إبداعية فنية، حيث تمكّن الروائي من تصميم جزئيات الأحداث وتركيبها وفق رؤية حاكت الواقع الجزائري في تلك الفترة العصيبة، وجسد صراع هويتين: الأولى خلافة طاردة متطرفة لها اسمها، وشكلها وإيديولوجيتها، لا تعترف بالثانية المتمثلة في السلطة، فتولّد عن ذلك الصراع عنفٌ مبثوث في ثنايا الرواية، إذ كانت هذه الأخيرة أرضية خصبة نسج عبرها أشكاله المختلفة، وفضح من خلالها الكاتب "السلوك الدّراكوني" الدّمويّ الذي يتّبعه "المُعْتَف" مع الآخر قصد السيطرة والانتقام وإثبات الذات. وما ذاك الصّراع إلّا نفسٌ وهدم للهوية الجزائرية الباحثة عن الحرية والسلام، وذلك العنف الذي عرفته الجزائر خلال العشريّة السوداء يُعدّ إرهاباً وليس عنفاً عادياً، كون العامل السياسيّ أساس الحرب الأهلية غير المعلنة التي خلّفت جراحاً لا تندمل.

7. الهوامش:

- ¹ - ابن منظور، 2009، لسان العرب ج15، ط1، لبنان، دار الكتب العلمية، ص 439.
- ² - الشّريف الجرجاني، 1405هـ، التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ص ص 137-138.
- ³ - أحمد منور، 2007، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي (نشأته وتطوره وقضاياه)، دط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص12.
- ⁴ - لويس معلوف، دت، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، ط8، بيروت، لبنان، المطبعة الكاثوليكية ص ص 564-565.
- ⁵ - Jeruvan, Sabek, *dictionnaire trilingue anglais français arabe*, Paris, maison Sabek, p 556.
- ⁶ - ماجدة حمود، 2013، إشكالية الأنا والآخر: نماذج روائية عربية، دط، الكويت، عالم المعرفة، ص15.
- ⁷ - بيتر كوزان، 2010، البحث عن الهوية وتشتتها في حياة إيريك ايركسون وأعماله، تر: سامر جميل رضوان، دط، العين، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي، ص 93.
- ⁸ - ابن منظور، 2008، لسان العرب المجلد3، ط1، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر، ص1088.
- ⁹ - محمود عبد الله خوالدة، 2015، علم نفس الإرهاب، ط1، عمان، الأردن، دار الشروق، ص44.
- ¹⁰ - الشّريف حبيلة، 2009، الرواية والعنف: دراسة سوسيو نصيّة في الرواية الجزائرية المعاصرة، ط1، إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث، ص15.
- ¹¹ - حسن إبراهيم أحمد، 2009، العنف من الطّبيعة إلى الثقافة: دراسة أفقيّة، ط1، دمشق، سوريا، دار النّيا، ص27.
- ¹² - ياسمينه خضرا، 2011، خرفان المولى، ترجمة محمد ساري، ط1، الجزائر، دار سيديا، ص 134.
- ¹³ - أليكس ميكشلي، 1993، الهوية، ترجمة علي وطفة، ط1، دمشق، سوريا، دار الوسيم للخدمات الطّباعية، ص82.
- ¹⁴ - محمد برادة، 2012، الرواية ورهان التجديد، ط1، مصر، الهيئة المصرية للكتاب، ص63.
- ¹⁵ - أليكس ميكشلي، الهوية، ص 72.

- ¹⁶ - ياسمينه خضرا، خرفان المولى، ص 109.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص 228.
- ¹⁸ - إيان واط، 1997، نشوء الرواية، ترجمة ثائرذيب، دط، القاهرة، مصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ص 21.
- ¹⁹ - ياسمينه خضرا، خرفان المولى، ص 137.
- ²⁰ - المصدر نفسه، ص 46.
- ²¹ - المصدر نفسه، ص 138.
- ²² - المصدر نفسه، ص 179.
- ²³ - المصدر نفسه، ص 132.
- ²⁴ - عبد العظيم السلطاني، 2005، خطاب الآخر، دط، ليبيا، المركز العالمي لدراسات الكتاب الأخضر، ص 52.
- ²⁵ - ياسمينه خضرا خرفان المولى، ص 181.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ص 148.
- ²⁷ - نور الدين الزاهي، 2005، الدار البيضاء، المغرب، المقدس الإسلامي، ط 1، دار توبقال للنشر، ص 92.
- ²⁸ - ينظر: عمر بوديبة، الاثنين (26 مايو 2014)، مدخل: رواية الأزمة.
http://omarboudiba.blogspot.com/2014/05/normal-0-21-false-false-false-fr-x-none_26.html
- ²⁹ - ياسمينه خضرا خرفان المولى، ص 92.
- ³⁰ - المصدر نفسه، ص 90.
- ³¹ - المصدر نفسه، ص 43.
- ³² - المصدر نفسه، ص 76.
- ³³ - المصدر نفسه، ص 203.
- ³⁴ - المصدر نفسه، ص 191.
- ³⁵ - المصدر نفسه، ص 147.
- ³⁶ - المصدر نفسه، ص 60.
- ³⁷ - المصدر نفسه، ص 76.
- ³⁸ - المصدر نفسه، ص 76.
- ³⁹ - المصدر نفسه، ص 90.